(١٢)

إسمعي يا مصر

(يامصر . . . إن فيك كثيرا مما يستوجب التحية والتقدير . بل مما يثير الاعجاب والاطراء . فيك النهضة الواثبة . والحياة الدائبة . والموارد الغزيرة . والخيرات الكثيرة . والأيدى القوية . والعزائم الفتية . وفيك العلوم والفنون والاداب والصناعات . ولك التاريخ الطويل العريض . وموقعك الجليل الفريد . ومن هنا تتضاعف مسئولياتك . وتكثر تبعاتك . وانت لها أهل يامصر . واذا قصرت بعد هذ كله فاللوم عسير . فكوني الزعيمة المتقدمة . وكوني الناهلة من ينابيع المدنية الصافية . ولكن لاتفرطى بعد هذا او قبله فى الواجب الخطير وهو حمل الاسلام إلى الغرب . والدفاع عن العقائد والأخلاق . والحرص على تنفيذ مبادىء الاسلام وتطبيق احكامه . ففي ذلك عز الدنيا والاخره)

الشرباصى

اسمعى يامصر

أحييك يامصر بتحية الاسلام وأحي فيك الزعامة للعالم العربى . الزعامة التى كانت عن جدارة واستحقاق ، لاعن احتكار واغتصاب . وانك تحلين اليوم فى العالم العربى محل السمع والبصر . ومحل العقل والفكر ، رضى به الناس أم لم يرضوا ولكن الواقع لاينكر

أحي فيك يامصر نفاق سوق العلم ورواج بضاعة الأدب . وتقدير رجال العلم والفن . فقد أنجبتهم واحتضنتهم ودافعت عنهم . وحدبت عليهم . فهم أبناؤك البررة وأنت الأم الحنون .

أحي فيك الأزهر الشريف الذى كان ولا يزال المنهل المورود فى الدين والعلم للعالم الإسلامى . والذى لايضارعه ولا يزاحمه فى تقدم السن وطول العمر وامتداد الظل وكثرة الانتاج معهدا وجامعة على وجه الارض .

أحي فيك المكتبة العربية التى فاضت وامتدت كالنيل وأصدرت كتباً ومطبوعات عربية لو وضع بعضها فوق بعض لكانت مثل الاهرام أو أرفع .

أحي فيك غيرتك على اللغة العربية . وجهادك فى احيائها ونشرها . ورفع شأنها وتوسيعها : حتى أصبحت بجهود أدبائك وكتابك ، وبفضل الصحافة المصريه والحياة السياسية ، وبفضل حركة التأليف والترجمة والنشر ، وبفضل المجمع اللغوى لغة راقية عصرية علمية سياسية فنية لاتقل فى غزارة مادتها وقابليتها لتعليم العلوم العصرية والطبيعية والرياضية عن أى لغة من لغات الغرب ،

أحي فيك عدداً مشرفاً من الأدباء والكتاب ، فيهم الكاتب المبدع ، والمترسل القدير ، والأديب الفنان ، والباحث الناقد ، والعالم الضليع ، والمؤرخ الأمين والفيلسوف الحكيم ، والمحدث اللبق ، والروائى المصور ، والمتهكم اللاذع ، والمضحك المطرب ، والمصلح المنتقد ، والشاعر المطبوع . والسياسى المناقش والصحافى البارع إذا كتب أحدهم فى موضوع ردد العالم العربى صداه . وافتخر المتأدبون بتقليد أسلوبه والنسج على منواله . واحتجوا به كما يحتج بشعر القدماء

حي فيك يامصر هذا وغير هذا . ولكن لى معك اليوم شأنا آخر ، إن لى معك كلاماً أرجوا أن تلقى إليه سمعك وتشهديه قلبك فأنا ضيف قد نزل بك ومن حسن الوفادة وتمام الضيافة الاستماع إلى كلام الضيف والاقبال عليه بالسمع والقلب .

إن مسئوليتك يامصر أوسع وأعظم من تأدية رسالة الأدب وخدمة لغة العرب . وما تجودين على الاقطار العربية الشقيقة رشحات الثقافة الاوربية وفتات المدنية الغربية إنك بين آسيا وأوربا فأنت ملتقى الثقافتين ومجمع البحرين ، انك وسط بين معهد الاسلام وشروق نوره ، وبين مولد الحضارة الغربية ومبعث العلوم العصرية ، فعليك مسئولية القارتين ، وعندك رسالة الثقافتين .

فأما مسئولية آسيا والاقطار العربية فلا تخرجين منها يامصر حتى تكونى قنطرة تعبر عليها الى البلاد العربية تجارب أوربا وعلومها ونشاطها وكدحها فى الحياة وجهادها للبقاء ، هنا لك تقومين برسالتك ووظيفتك ، لهذه البلاد العزيزة التى ترتبطين منها برابطة دينية وروحية وثقافية وسياسية .

وأما مسئولية أوربا فلا تخرجين منها حتى تبلغى رسالة الجزيرة العربية — وهى الاسلام الذى أحتضنته من زمان — الى أوربا ، وحل المشاكل التى أعيت كبار المفكرين وأتعبت عظماء المشرعين ، وبذلك تؤدين واجبك المقدس نحو هذه القارة الاوربية التى استوردت منها شيئاً كثيراً من العلم والمصنوعات والمنتجات . ونظمت عليها مدنيتك وحياتك تنظيما جديدا ، وتحسنين اليها أكثر مما أحسنت اليك وتصدرين اليها أفضل مما صدرت اليك .

انك يامصر بنيت القناطر الخيرية فانتظم الرى وأزدهرت الزراعة وأخصبت البلاد . وأريد أن تبنى قنطرة خيرية اخرى هى أكبر القناطر فى العالم وأنفعها ، تصل بين بحرين لم يزالا منفصلين . وبين حضارتين لم تزالا متنافستين . وبانفصالها وتنافسهما شقى العصر الجديد . فلو انك وصلت بينها وكنت قنطرة تتبادل بها القارتان خيراتهما ومحاسنهما . وفرت على الانسانية جهوداً واوقاتا كثيرة وصنتها من الضياع كما أن قناطرك الخيرية وفرت على مصر مياها كثيرة ونظمت امر الرى

لقد كان حفر قنال السويس أكبر حادث فى التاريخ العصرى غير مجرى التاريخ وأحدث انقلابا فى السياسة والتجارة ، ولكن من يستطيع أن ينكر ن شقاء الأمم الشرقية كان أعظم وأعظم من سعادتها ، وأنها لم تجن من السويس إلا عبودية واستعمارا والعالم الآن فى حاجة الى قنال آخر ، قنال التعارف الصحيح المتبادل المتوازن ، وإليك وحدك يامصر ، القيام بهذه المبرة العظيمة لمكانك الجغرافى وأهميتك السياسية وثروتك الثقافية ومركزك الروحى تعلمين أن دولة لاتتزن ميزانيتها ، ولا تتحسن احوالها الاقتصادية ، إلا إذا وجد توازن بين حركة التصدير والتوريد ، أوكان تصديرها أكثر من توريدها . ولكننا فى الشرق نورد أكثر مما نصدر ، وكان السويس أكبر مطية من مطايا هذاالتوريد فلا نريد قنطرة أو قنالا يكون معبر البضائع الأجنبية من افكاروآراء وفلسفات واخلاق إلى اعماق الشرق واحشائه،بل نريد قنالا يساوى بين التوريدوالتصدير ويصدر افضل ماعند الشرق الاسلامى من رسالة وعقيدة وخلق وعلم ، ويورد احسن ماعند الغرب من منتجات ومصنوعات وتجارب واكتشافات ومرافق الحياة ، فكوني يامصر ذلك القنال الأمين العادل الذى لا يسمح بالمرور إلا للصالح الفاضل .

إن لك يامصر يدين ، فخذى من الغرب مافاق فيه من علم وتجربة فالحكمة ضالة المؤمن ومدى اليه يدا اخرى ، يد المساعدة والكرم ، وجودى عليه بما انعم الله عليك من نعمة الايمان وشرف الاسلام فذلك الذى لا يملكه الغرب ولا يستغنى فيه عنك . وقد انتهى به افلاسه فيه الى ماترين من فوضى واضمحلال يتصدق عليه بهذا الايمان ورسالة الروح ، ولاتنسى ابدا ان اليد العليا خير من اليد السفلى .

كونى يامصر رسول الإسلام الى الغرب ، واحملى اليه رسالة محمد ﷺ تلك الرساله التى حملها العرب الى الأمة الرومية والأمة الفارسية فأنقذتهما من مخالب الموت وافاضت عليهما ثوبا قشيبا من الحياة ولونا جديداً من النشاط وليس الغرب اقل حاجة الى هذه الرسالة وهو فى دور التفكك وتنازع الموت والحياة من الأمة الرومية والفارسية اليها. وقديما اختار الملوك وأصحاب الرسالة

السماوية رسلا من عشيرتهم والأقربين اليهم ، ولك من إبراهيم واسماعيل ومحمد ﷺ رحم ماسة وقرابة خاصة ليست لقطر من الاقطار الاسلامية بعد الجزيرة العربية .

إن اوربا قد شاخت ونضجت كالفاكهة التى ادركت وضعف الغصن عن حملها فاستعدى يامصر الاسلامية لتحل محلها فى الزعامة العالمية وقيادة الأمم ، وماذلك بعزيز ولا بمستحيل اذا تم استعدادك الروحى والخلقى والمادى . واذا كانت اوربا قد احتفظت بالقيادة العالمية هذه المدة الطويلة وليست عندها رسالة عامة للانسانية ولا دعوة مخلصة لأمم العالم وعندها كل مايضعف ثقة العالم بها من وطنية وعنصرية وتقديس للنسل الآرى وادلال باللون الأبيض ونزعة تجارية واستعمار ، فكيف لايرضى العالم بقيادتك وعندك الرسالة التى تضمن سعادة العالم كله ، ودين لايفرق بين الأوطان والعناصر والألوان ؟

إحرصى يامصر على رجولة أبنائك وأخلاقهم ، وصونى شبابهم وشرفهم ودينهم وصحتهم من أن يعبث بها العابثون أو يتجر بها المتجرون ممن يعيشون على أثمان الأعراض والأخلاق ويحبون ان تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لترويج بضاعتهم وتزدهر تجارتهم ، أولئك هم أصحاب الروايات الخليعة والصور العارية والأدب المكشوف ، فانك يامصر فى محل الزعامة والقيادة للشرق الأوسط وفى طريقك إلى الزعامة والقيادة للعالم الإسلامى . ولا تأتى الزعامة والسيادة إلا بعد الاستقامة والثبات مزالق الانسان والنجاح البارز فى امتحان العفة وطهارة الأخلاق ، واذكرى قصة يوسف التى مرت على أرضك ، ووقعت بين سمعك وبصرك كيف ثبت فى الامتحان ، وكيف حافظ على دينه وعفته ، فكانت نتيجة ذلك الثقة والاعتماد والسيادة والملك ، واقرئى إن شئت « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » ، بل ولا حياة ولا شرف إلا بالرجولة والأخلاق ، فكيف وانت فى ميدان القتال وساحة الجهاد فلا بد ان تحفظى وصية قائدك الكبير سيدنا عمرو بن العاص وتذكرى ماقال لخلفائه فى ارضك : « واعلموا انكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم »

فكالحى يا مصر الوباء الخلق الذى يقضى على حيوية الأمة اشد مما تكالحين وباء الكوليرا الذى يقضى على حياة بعض الأفراد ؛ وطاردى كل من يحاول ان يزعزع العقيدة فى شعبك ، ويزلزل الايمان ويفسد الخلق ، اشد مما تطاردين من ينشر الوباء او يسبب الأمراض او ينقل إلى ارضك الميكروب ، فلم يسمع ان الامة الرومية العظيمة ماتت وبادت بسبب وباء او مرض وان اليونان اجتاحهم مرض من الامراض ، ولكننا قرأنا فى التاريخ وشهدت انت ان هذه الامم كانت كلها فريسة التفسخ الخلقى ، والامراض الاجتماعية ، فاحذرى يا مصر صانك الله وحرسك - هذا المصير المؤلم .

إن العالم العربى قد احلك يا مصر من نفسه محلا رفيعا ووضع ثقته فيك وفتح لك اذنيه وعينيه ، فاتق الله يا مصر فيمن ائتمنك ووثق بك فى نفسه وعقله ، ولا تصدرى إليه من ادبك ومطبوعاتك يزعزع من إيمانه واخلاقه وقوته المعنوية الروحية ، كما لا ترضين ولا ترضى كرامتك ومروءتك ان تصدرى إلى زبائنك من الدول والبلاد الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة ولا تقبلين ان يصدرها اليك احد ، وصدقينى يا مصر العزيزة ان هذه الروايات الخليعة والادب الماجن افسد واضر للأمة والحياة من الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة . إنك زعيمة العالم العربى فلا تغلبنك النزعة التجارية ولا تغرنك المنافع المؤقتة ، فلا يكون زعيما ولا يكون عظيما من يؤثر العاجل على الآجـــل ، والمنفعة الفرديه على المنفعة الإجتماعية ، والانرة على الإيثار .

انك يا مصر من اغنى بلاد الله ، ولست اعنى بالغنى خصب الارض وكثرة الموارد ، وانك لغنيه فيها من غير شك ، ولكنى اعنى غناك فى الموادالخامة وهى الشعب الذى توفرت فيه المواهب والقوى ، خصوصا ما يسكن منه فى ارياقك ، فهى المناجم التى لا تزال مدفونة ، والمعادن التى لم تستخرج بعد ، هذا الشعب قوى الإيمان قوى الشخصية ، قوى الجسم ؛ فلو انك احسنت تعليمه وتربيته وافدت من هذا الإيمان ووضعته فى محله لكان حارسك الامين وجندك القوى وثروتك العظيمة .

قد اختار الله لك يامصر قارة من أوسع القارات وأكثرها مواد بخاصة هي القارة الافريقية ولا يزال جزء كبير منها على سذاجته وفطرته ، ولا تزال فيها امم على الجاهلية والوثنية ، وعلى الجهالة والضلالة ، ولا تزال فيها امم كاللوح الصافي يكتب الانسان فيه مايشاء ، وهذه الاجزاء من القارة وهذه الامم خير حقل لجهودك وتربيتك ، وخير ارض لزراعتك وغرسك ، فارسلي اليها دعاتك المبشرين ورجالك المصلحين ، وعلماءك المرشدين وأبناءك المعلمين ؛ يبلغونهم الدين ويتلون عليهم آيات الله ويعلمونهم الكتاب والحكمة ، وبذلك تنقذين بإذن الله نفوساً كثيرة من النار ، وتخرجينها من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها وتكتسبين قلوباً نقية وارواحا فنية وأجساماً قوية ، ويكون ذلك خيرا لك من هذه الأمم والدول الغربية التي تخطبين ودها وتحرصين على صداقتها وهي لاتدوم على حال بل تجري وتدور مع أغراضها المادية ومصالحها السياسية ، فيوما هي معك ويوماً مع أعدائك ، وإذا كانت معك لم تكن بإخلاص وصدق ، وإنما هي المطامع والمصالح . وما أضعف الصداقة التي تقوم على المطامع والأغراض !

وأخيراً أريد أن أقول لى اذنك يامصر إن لله في خلقه شؤونا وإنه أعظم غيرة من كل غيور وانه لايعطي نعمة دينه الا من يعظمها ويجلها ويقدرها حق قدرها فإذا رأى منك استغناءاً عن الدين وما يفيء عن احتقار لشأنه واستصغارا لأمره وزهداً في الاسلام ، وانصرافا عن خدمته وتقصيرا في اداء رسالته واعتزازا لمبدأ غير الاسلام وتشرفاً بغير محمد عليه الصلاة السلام استغنى عنك ـ على مآثرك السابقة وثروتك الضخمة ومدنيتك الفخمة ـ « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » وجاء لخدمة الاسلام وقيادة الأمم الاسلامية بأمة لم تخطر منك على بال تعتز بالدين وحده وتتشرف برسالة الاسلام وتتشبع بحب محمد عليه الصلاة والسلام وتلتهب غيرة دينية وحماسة اسلامية وتجاهد في سبيل الله ولا تخاف لومة لائم ، وان الله تعالى حذر العرب الأولين وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم « فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » وقال للمسلمين العرب « وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونو

أمثالكم ، ولله جنود السموات والارض ، وفى كنانة الاسلام سهام لم يرها أحد ولاتخرج الا فى وقتها : ومن يدرى فلعل شمس الإسلام تطلع من المشرق وهذه أمم اسلامية فتية على سواحل المحيط الهندى وفى جزره تتحفز للوثوب وتتهيأ لقيادة العالم الاسلامى ، فاحتفظى يامصر العربية بمكانتك ومجدك ولا تأمنى دورة الأيام ولا تأمنى مكر الله ، فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » .

هذه تحيتى لك يامصر العزيزة فتقبليها ، وهذه آمالنا فيك فحققيها ، وكلمة للمرة الأخيرة فتحمليها ، وهذه معذرتى اليك فاقبليها ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

تم